المرأة ودورها الاجتماعي والتربوي في أشعار نزار قباني

أستاذة مشاركة عزت ملاابراهيمى
أحمد دقيق شيرازى (طالب مرحلة الدكتوراه)
جامعة طهران/ إيران

Women and important role`s at educational and social levels

Corresponding Prof. Izat Mulla Ibraheem
Ahmed Daqiq Sherazi (Ph.D student)
Tahran University\ Iran
mebrahim@ut.ac.ir

Abstract

Women have their own special peculiarities which make them different from men in playing a highly important role at educational and social levels. The woman has an important message in playing role as mother and during her youth she carries the child and feels her child during childhood. The mother stand up to affection of the children till the last breath as this is seen in all issues of Arab literature and is especially reflected in poetry.

We are trying to study, by adopting a descriptive and analytic approach, the social and educational role of women in this research and by studying the poems of contemporary Arab poet, Nazar Qabani, who has focused on the issue of women. This study concludes that women play a superior role in building up of societies and generations; therefore Qabani realized this role well as it has been reflected in his poetry.

This research also shows that the contemporary women have played their social and educational roles during developments and events taking place in the Arab Society. This part cannot be ignored in the contemporary Arab world.

Keyword: Women, important role, educational, social levels, Nazar Qabani.

الملخص

للمرأة خصوصياتها التي لايشاطرها فيها الرجل حيث تمارس دورا رياديا على الصعد التربوية والاجتماعية فهي تحمل رسالة رفيعة تتجسد في دور الأمومة حيث تضطلع باعباءه وهي في ريعان الشباب وتشعر به منذ نعومة اظفارها وتبقى حانية على فلذات كبدها حتى تلفظ انفاسها الاخيرة وهو ماانعكس في الأدب العربي بكل صنوفه لاسيما في الشعر. ونحاول، من خلال هذا البحث، تسليط الاضواء على دورها الاجتماعي والتربوي عبر دراسة ديوان شاعر المرأة المعاصر في العالم العربي نزار قباني، الذي صبّ جل اهتمامه لقضية المرأة، وذلك باعتماد المنهج الوصفي والتحليلي. ويستخلص البحث إلى أن للمرأة دوراً متميّزاً في صناعة المجتمعات وتربية الاجيال، وعليه فقد استوعب قباني هذا الدور، حيث انعكست قضيتها في أشعاره. كما يتبين من خلالها أن المرأة المعاصرة أدت دورها الاجتماعي والتربوي خلال التطورات والاحداث التي طرأت على المجتمع العربي، إذ لا يمكن غض النظر عن هذا المكوّن في العالم العربي المعاصر.

الكلمات الرئيسة: الشعر المعاصر، المرأة، الاجتماع، التربية، نزار قباني.

المقدمة

من الأمور التي أجمع عليها المربّون إقرارهم بأهمية الدور التربوي بوصفه عنصراً رئيساً في توجيه الأفراد نحو تحقيق أهداف المجتمعات، ولمدى أهميتها فقد لفتت انتباه العلماء المسلمين الذين دوَّنوا في موضوعات التربية الإسلامية مؤصّلين لها، ومبرزين عناصرها وأهدافها وسبلها، والمؤثرات على نتائجها، وما تتركه من تأثيرات تشعها التربية الإسلامية بين أوساط المجتمع، بل كان من

اهتمام علماء التربية الإسلامية التركيز على التربية المنزلية باعتبارها المنطلق والقاعدة الرئيسة في تربية الأفراد مركزين أهمية دور الوالدين لاسيما الأم في تلك المهمة البارزة.

وتبعاً لهذا فإن إبراز دور المرأة التربوي والعوامل التي تساعد على إظهاره بوصفه وظيفة تتصدر ماسواها بل هي الأهم فيما يجب البراعة فيه، والعقبات التي تواجهها في أداء وظيفتها تلك يعد مضماراً لافتاً وجديراً بالاهتمام من قبل كل من يعنيه أمر التربية ومستقبل الأجيال.

وبدأت الهواجس بعد احتكاك المجتمع العربي لاسيما المكون النسوي بقيم المجتمع الغربي، فظهرت الرغبة في نيل المزيد من الحريات ورفض القيود التي فرضتها التقاليد المتوارثة للمجتمع العربي القديم وبالتالي انبهرت بحرية المرأة الغربية، ما نتج عنه تحلل خلقي ضرب المرأة ومن ثم المجتمع ككل.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في ضرورة التركيز على فكر الشعراء الذين كانوا من أهم المتتبعين لشؤون المرأة في مجتمعاتهم، والنظر الى دورها المعاصر من خلال الشعر الحديث، لا سيما شاعر المرأة الكبير نزار قباني. إلى جانب إلقاء النظرة على جوانب أخرى من أشعاره، لاسيما التربوي والاجتماعي.

خلفية البحث

البحث الحاضر جديد نسبيا إذ أن اكثر الدراسات التي تطرقت الى اشعار نزار اهتمت بالجانب الرومانسي والرمزي، وغفلت عن الجوانب الاخرى ومنها الدور الاجتماعي والتربوي للمرأة المعاصرة. حيث لم نجد لموضوع البحث دراسة خاصة تتناول الموضوع.

أسئلة البحث

١- ماهي الاشعار التي عرّف قباني فيها هذا الدور؟

٢- أي دور للمرأة كان يؤكد عليه نزار؟

فرضية البحث

يعتمد البحث على فرضية تشير الى أن لنزار قباني – لاسيما في المرحلة الاخيرة من حياته الادبية – دوافع أخرى في إنشاده القصائد التي ترتبط بقضية المرأة، وهي الدور التربوي والمسؤولية الاجتماعية الملقاة على عاتق النساء من تربية الاجيال وتأهيل مجتمع واع ومحب للآخر، والابتعاد عن الـ «أنا»، حيث تتجسد هذه القضية بالمرأة لاسيما الأم. ولكن هذا لايعني نفي الجوانب الاخرى لأشعاره كالعاطفة والحزن و...

١. أدب الدراسة النظري

١.١. صورة المرأة في الشعر العربي الحديث

تعد المرأة عنصرا بارزا من عناصر الخطاب الشعري، ولشخصيتها حضور متميز في النشاط الشعري، والقصيدة عامّة وفنها يتركز على الحوار، وفن العلاقات البشرية بين الرجل والمرأة، مع الطبيعة والاشياء عبر الخيال الذي يستمد مقوماته من تجارب الحياة، وفي القصيدة العربية هناك صورة للمرأة تتناقض مع واقعها، وهناك صورة المرأة المستقيمة، والخصائص الجوهرية التي تحمل معاني حضورها الانساني وخصوصيتها الانثوية، وبنية الشعر تقوم على هذا الحضور، فالمرأة ذات معطيات جمالية واجتماعية، لذا فهي تمد الاديب بمادة غزيرة.

واختلفت صورة المرأة في الشعر العربي الحديث عنها في الشعر القديم، حيث دخلت في هذه المرحلة الشعرية بحلة جديدة مختلفة عن صورتها التقليدية المكتسبة في الشعر العربي (عكاش، ٢٠٠٥: ص٢٠).

ولقد عبّرت الأشعار العربية عن تحولات الساحة الاجتماعية العربية وانعكاساتها على الوعي حيث جاءت صورة المرأة فيها لتفصح عن توقها إلى الحرية والتحرر وفق الأنموذج الغربي (النويس، ٢٠٠٩: ص٤٥).

أما البحث الراهن، فهو يضطلع بدراسة الدور – الذي تمثله المرأة عامة والأم خاصة – لاسيما في المجتمع؛ ذلك الذي يهتم بتربية الأجيال وإعداد المجتمعات، كما أشار اليه الكثير من الأدباء والشعراء كالشاعر المصري حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيّب الأعراق

من هذا المنطلق، اخترنا شاعر المرأة المعاصر «نزار قباني»، وفي هذا السياق حاولنا تسليط الضوء على بعض قصائده، منها «المرأة وجسدها الموسوعي» و«أريدك أنثى» و«القصيدة تولد من أصابعها»، و«البيان الأخير من الملك شهريار»، و«أجمل نصوصي» و«اللغة الأنثى»، اذ تناولنا من خلالها دور المرأة التربوي والاجتماعي. وانتهجنا في دراستنا المنهج الوصفي – التحليلي.

١.٢. حياة الشاعر في سطور:

نزار قباني شاعر ودبلوماسي سوري. ولد في دمشق عام ١٩٢٣ من اسرة عريقة، حصل على البكالوريا من مدرسة الكلية العلمية الوطنية بدمشق، ثم التحق بكلية الحقوق بالجامعة السورية وتخرّج فيها عام ١٩٤٥ م (الحاوي، ١٩٧٣: ص ٣).

يقول نزار عن نشأته "ولدت في دمشق في آذار (مارس) ١٩٢٣ في بيت وسيع، كثير الماء والزهر، من منازل دمشق القديمة، والدي توفيق القباني، تاجر وجيه في حيه، عمل في الحركة الوطنية ووهب حياته وماله لها. تميز أبي بحساسية نادرة وبحبه للشعر ولكل ما هو جميل. ورث الحس الفني المرهف بدوره عن عمه أبي خليل القباني الشاعر والمؤلف والملحن والممثل وبذر أول بذرة في نهضة المسرح المصري. امتازت طفولتي بحب عجيب للاكتشاف وتفكيك الأشياء وردها إلى أجزائها ومطاردة الأشكال النادرة وتحطيم الجميل من الألعاب بحثا عن المجهول الأجمل. عنيت في بداية حياتي بالرسم. فمن الخامسة إلى الثانية عشرة من عمري كنت أعيش في بحر من الألوان. أرسم على الأرض وعلى الجدران وألطخ كل ما تقع عليه يدي بحثا عن أشكال جديدة. ثم انتقلت بعدها إلى الموسيقى ولكن مشاكل الدراسة الثانوية أبعدتني عن هذه الهواية".

التحق بعد تخرجة بالعمل الدبلوماسي، وتنقل خلاله بين القاهرة، وأنقرة، ومدريد، وبكين، ولندن. وفي ربيع ١٩٦٦، ترك نزار العمل الدبلوماسي وأسس في بيروت دارا للنشر تحمل اسمه، وتفرغ للشعر. وكانت ثمرة مسيرته الشعرية إحدى وأربعين مجموعة شعرية ونثرية، كانت أولها "قالت لي السمراء" ١٩٤٤.

بدأ أولاً بكتابة الشعر التقليدي ثم انتقل إلى الشعر العمودي، وساهم في تطوير الشعر العربي الحديث إلى حد كبير. يعتبر نزار مؤسس مدرسة شعريه وفكرية، تناولت دواوينه الأربعة الأولى قصائد رومانسية. وكان ديوان "قصائد من نزار قباني" الصادر عام ١٩٥٦ نقطة تحول في شعر نزار، حيث تضمن هذا الديوان قصيدة "خبز وحشيش وقمر" التي انتقدت بشكل لاذع خمول المجتمع العربي. واثارت ضده عاصفة شديدة حتى طالب رجال الدين في سوريا بطرده من الخارجية وفصله من العمل الدبلوماسي. تميز قباني أيضاً بنقده السياسي القوي، من أشهر قصائده السياسية "هوامش على دفتر النكسة" ١٩٦٧ التي تناولت هزيمة العرب على أيدي إسرائيل في نكسة حزيران. من أهم أعماله "حبيبتي(1961) "، "الرسم بالكلمات" (١٩٦٦) و"قصائد حب عربية" (١٩٩٣).

كان لانتحار شقيقته التي أجبرت على الزواج من رجل لم تحبه، أثر كبير في حياته، قرر بعدها محاربة كل الاشياء التي تسببت في موتها. عندما سؤل نزار عما اذا كان يعتبر نفسة ثائراً، أجاب: "ان الحب في العالم العربي سجين وأنا اريد تحريره، اريد تحرير الحس والجسد العربي بشعري، أن العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا غير سليمة".

تزوّج نزار قباني مرتين، الأولى من ابنة عمه "زهراء آقبيق" وأنجب منها هدباء ووتوفيق. والثانية عراقية هي "بلقيس الراوي" وأنجب منها عُمر وزينب. توفي ابنه توفيق وهو في السابعة عشرة من عمرة مصاباً بمرض القلب وكانت وفاتة صدمة كبيرة له، وقد رثاة في قصيدة إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني. وفي عام ١٩٨٢ قُتلت بلقيس الراوي في انفجار السفارة العراقية ببيروت، وترك رحيلها أثراً نفسياً سيئاً عند نزار ورثاها بقصيدة شهيرة تحمل اسمها «بلقيس».

بعد مقتل بلقيس ترك نزار بيروت وتنقل في باريس وجنيف حتى استقر به المقام في لندن التي قضى بها الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من حياته. ومن لندن كان نزار يكتب أشعاره ويثير المعارك والجدل. خاصة قصائده السياسة خلال فترة التسعينات مثل: متى

يعلنون وفاة العرب؟؟، والمهرولون. وافته المنية في لندن يوم ١٩٩٨/٤/٣٠ عن عمر يناهز ٧٥ عاما قضى منها اكثر من ٥٠ عاماً في الحب والسياسة والثورة.

يقول نزار قباني: "تعلَّمْتُ أنَّ كل كلمة يرسمها الشاعر على ورقة، هي لافتة تحدٍّ في وجه العصر. وأن الكتابةَ هي إحداث خلخلة في نظام الأشياء وترتيبها. هي كَسْرُ قشرةِ الكون وتفتيتها". (قباني: ١٩٧٣ م، ص١٣-١٤)

١.٣.ميزات نزار الشعرية

أثرى نزار بشعره الحياة الأدبية في التاريخ المُعاصر بما قدمه من شعر ونثر على مدار أكثر من نصف قرن، ويعد فحلا في الشعر العربي المعاصر، وصاحب مدرسة شعرية لها سماتها الفنية التي نميزها، وله جمهوره ومريدوه.

اكتسب شاعرنا تجارب وبدايات شعرية، فحين كانت طيور نورس تلمس الزبد الأبيض عن أقدام السفينة المبحرة من بيرون إلى إيطاليا في صيف عام ١٩٣٩ دمدم نزار بان أول كلماته من أول بيت شعر له، وكان حين ذلك في ١٦ من عمره (قباني، ١٩٧٣: ص ٦٢)، وفي عام ١٩٤٤ كانت الثورة الشعرية الحقيقية لنزار (نفس المصدر، ص ٨٧) وكان حينئذ طالبا في كلية الحقوق، وقد طبع ديوانه الأول، ورغم الاعتراض القاسي الذي واجهه نزار وديوانه، فقد بيعت جميع نسخه، وقد كان يعد ديوانه اكتشاف عالم الأنثى وطراوة ألوانه فيه، يروي الشاعر كيف اكتشف الشهوة؟ وأخيرا كيف اكتشف الحب؟ وأهم الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الديوان ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي، وعدّ هذا الديوان مساسا بالدين والعادات والتقاليد، وكل ما كتب من شعر، ولكن مرحلة «قالت لي السمراء» انتهت بعواصفها واكتشافاتها لعالم المرأة، وبدأ نزار بعدها رحلة أخرى: هي رحلة عبادة الجمال، بالرغم أن جمال المرأة عنده ليست حبا بالمرأة وإنما هي وسيلة إلى القصيدة، ويظهر ذلك في ديوانه الثاني «طفولة نهد» والشاعر في هذه المرحلة متحفز الاعصاب مرهف الحس تكاد مشاعره نحو المرأة تصل حد الرق والهيام، إنه عيش على الحدس والترقب والتوقع فما كان عابد الجمال إلا ذلك الحنين والقلق (صبحي، ١٩٦٨: ص ٤١).

أما المرحلة الثانية من مراحل الشعر لدى نزار قباني، فهي مرحلة صداقة الجمال، وذلك في ديوانيه «سامبا» و«أنت لي» أما ديوانه «سامبا» فقد تحرر من القالب الشعري الموروث وطوع بحور الشعر العربي للتعبير عن التجارب الجديدة، وحاول أن يجعل انغام الحروب وإيقاعات الكلمات والجمل تنسجم مع الجو العام للرقصة، كما صور المرقص بما فيه من أنوار وثياب وما يثيره الرقص والنغم من عواطف وحركات (قباني، ١٩٧٣: ص ٧٣). وفي ديوانه «أنت لي» دخل الشاعر البيوت وصوّر لقطات صغيرة تنتشر في زوايا الحياة، فتزينها محاولا أن يجعل من المشاهد اليومية موضوعات أساسية للشعر (نفس المصدر، ص ٧٧). كان الشاعر في دواوينه الأولى يسبّح للحب ويوقظ الرجاء، ويمنح النفس الترف، وكان يجد صدى لدى قارئه في شعره من تهييج للحواس وإثارة المشاعر والدعوة إلى الحب، أما ديوانه «قصائد نزار» ففيه رجوع قوي إلى الطبيعة بعد أن عاش طويلا في أجواء المدينة في دواوينه السابقة، وهو يدمج الحب بالجو الريفي ويتغلغل إلى الجزئيات في كليهما، فإذا بالغناء يشبه انطلاق الموال في المروج وإذا بالحياة لدينا ترفرف في مختلف مظاهر الطبيعة، وتجمعها في كل نسق إطاره عاطفة الانسان وإحساسه (نفس المصدر، ص ٨٨). هذه القصائد ذات المناظر الرعوية والعواطف الشفافة والموسيقى الناعمة العذبة يمكن أن نسميها الرعائيات الغنائية وتتصف بغلبة العنصر الموسيقى عليها.

وينتقل شعره من الغزل والمرأة إلى السياسة، فقد كانت «حب وحشيش وقمر» أولى قصائده السياسية القومية للتعبير عن صحوة الضمير العربي نقديا، وادانة غفوة المجتمع التاريخية، ونظمها في لندن عام ١٩٥٤ على وجه التحديد، وتلتها قصائد عن فلسطين والسويس والجزائر وكل ما كان يشغل الانسان العربي في مرحلة اكتشافه لضميره القومي وتعميقه لوعيه الوطني والانساني، كانت كلها تبلور المعالم الأولى لخطاب العروبة شعرا في اتساق واضح مع التيار القومي التحرري حتى في هذا الموقف الحاد من القوى الاقتصادية الصاعدة في البتول العربي لتوظيفه ضمن تيار هذا المد الجديد (فضل، صلاح، ١٩٩٨:، ص ٣٧٤). وكذا كان في شعره نظرة تاريخية، يقول نزار قباني في إحدى تصريحاته: «قد تكون قصائدي غيرت شيئا في بيئة المجتمع العربي ونسيجه وقد تكون

ساعدت المرأة في التخلص من ضعفها ودونيتها ودكتاتورية ذكور القبيلة فإذا اعترفت المرأة بما فعلته من أجلها فشكرا لها... وإذا لم تعترف فشكرا لها (الهواري، ٢٠٠٤: ص ٤٣).

١.٤. نزار قباني وقضية المرأة

المرأة عند نزار قباني جواز سفره، وبطاقة هويته، وهي كل تاريخه الثقافي والحضاري، بل هي ذاته الحاضرة الغائبة دوماً، تختزل عناصر الحياة والفصول الأربعة، وتختزل العالم كله في نظرة أو في إشارة أو حركة، وهي كالبرق تلمع لتضيء غياهب نفسه وظلماتها ثم تختفي بالسرعة نفسها التي أضاءت بها تلك الغياهب. يعثر عليها تارة وتضيع منه في معظم الأطوار، فتشكل بذلك الحضور والغياب في الوقت نفسه، إنها قارب نجاة أحياناً ومرفأ أمان أحياناً أخرى، ولكنها في معظم الأحيان عاصفة هوجاء ومصدر ضياع وقلق وخوف ورهبة وحزن أبدي وإن تخلله من حين إلى آخر بعض فواصل السرور، إنها داؤه العضال لكنها مسكن هذا الداء في ذات الوقت. ولكن مع ذلك قليلات هن النساء اللواتي ضربن جهازه العصبي فكتب فيهن شعراً، وما كل امرأة عرفها حركت رياح الشعر في داخله، ولا كل علاقة نسائية فتحت شهيته إلى الكتابة، كثيرات من النساء ذهبن من حياته كما أتين، ولم يتركن وراءهن حرفاً ولا فاصلة، فقد كان دائماً في داخله يتصارع الرجل والشاعر (قباني،١٩٨٨: ص ١٤٣.).

ويعترف نزار قباني أنه من خلال تجاربه، تعلم أن المرأة الشعر هي التي تترك شرخاً وارتجاجاً في قشرة دماغه، وتحدث خلخلة في إيقاع أيامه، وفي نظام الأشياء من حوله، ومن ثم فإن النساء اللواتي أحدثن كسراً في زجاج حياته لا يتجاوز عددهن أصابع اليد، أما الباقيات فلم يتركن سوى خدوش بسيطة على سطح جلده، ويؤكد أنه على الرغم من سمعته كشاعر حب فإنه نادراً ما وقع في الحب، خمس مرات ربما في مدى ثلاثين عاماً (قباني،١٩٩٣: صص ٣٣٦ – ٣٣٩).

لقد راهن نزار على حرية الفرد، وخاض لأجل ذلك معارك عديدة، فحاول أن يمنح المرأة وجودا متكاملا فأبرزها ضمن شروط الحب والعاطفة المشتركة، ذلك أنه يمتهن العشق، يقول نزار: « أنا من أسرة تمتهن العشق، والحب يولد مع أطفال الأسرة كما يولد السكر في التفاحة، في الحادية عشرة من عمرنا نصبح عاشقين وفي الثانية عشرة نسأم وفي الثالثة عشرة يصبح الطفل في أسرتنا شيخا وصاحب طريقة العشق، جدّي كان هكذا، وأبي كان هكذا وإخوتي كلهم يسقطون في أول عينين يرونها، يسقطون بسهولة، ويخرجون من الماء بسهولة، كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح.. في تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق... الشهيدة هي اختي الكبرى وصال، قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها... صورة أختي مازالت وهي تموت من أجل الحب محفورة في لحمي (قباني، ١٩٧٣:، صص ٧٤-٧٥).

قضية المرأة في شعر نزار قباني تتشعب من مرحلتين شعريتين تجسدان مفهوم المرأة عند الشاعر. المرحلة الأولى: مرحلة المرأة/ الجسد (تحرير الفرد. تحرير الذات) والمرحلة الثانية: مرحلة المرأة/ الرمز (تحرير المجتمع. تحرير الآخر).

إن معظم الذين تناولوا شعر نزار بالدراسة والتحليل تطرّفوا كثيراً في أحكامهم النقدية على شعر الشاعر ولاسيما فيما يتعلق بقضية شعره الذي يصف فيه بعض أعضاء المرأة الجسدية ومنهم الناقد المصري الكبير غالي شكري، حيث وصف نزار بالسطحية تجاه المرأة بقوله: "إن نزاراً الذي غنى للمرأة مئات القصائد لم يتجاوز قط السطح الخارجي لمشكلاتها، لم يتجاوز الحلمة والفستان والعيون، والقميص... الخ". (شكري، ١٩٧٨ م:١٥٨)

المرأة والشعر عند نزار يكملان بعضهما بعضًا، هي تعطيه الاشتعال، والتوهّج، والمادّة الأوليّة للإبداع، وهو يجمّلها ويكمّلها ويعطّرها ويحفظها من التبدّد والاندثار. فالمرأة أعطت شعر نزار قباني حضورًا مائيًا على حدّ تعبيره ونفضت عن أبجديّته الغبار الصحراوي، وهو لا يخصّ هنا شعر الحب فقط، وإنّما كل ما كتبه من شعر أو نثر كانت المرأة السحابة التي تنشر ظلالها عليه.

٢. دور المرأة التربوي والاجتماعي في شعر نزار

يمكننا أن نستكشف دور المرأة التربوي والاجتماعي في بعض أشعار نزار من خلال المضمونين التاليين:

٢.١. المرأة وحماية شأنها الفردي

لعل أفضل قصيدة تركز على حماية الشاعر للمرأة في المجتمع هي قصيدة «المرأة وجسدها الموسوعي». يركز الشاعر في بداية القصيدة على قدرتها في نظم الشعر وكتابة القصة والمسرحية، كلها من خلال ذمّ من يعيق المرأة عن المشاركة في الشؤون الاجتماعية:

«ليسَ صحيحاً أن جسَدَكِ.../ لا علاقة له بالشعر ../ أو بالنثر، أو بالمسرح، أو بالفنون التشكيلية.. / أو بالتأليف السمفوني ../ فالذين يطلقون هذه الإشاعة، هم ذكور القبيلة ../ الذين احتكروا كتابة التاريخ ../ وكتابة أسمائهم في لوائح المبشرين بدخول الجنة ../ ومارسوا الإقطاع الزراعي، والسياسي، والاقتصادي ,/ والثقافي والنسائي ../ وحددوا مساحة غرف نومهم ../ ومقاييس فراشهم ../ وتوقيت شهواتهم ../ وعلقوا فوق رؤوسهم / آخر صورة زيتية للمأسوف على فحولته ../ أبي زيد الهلالي!!» (قباني، ١٩٩٤).

وفي المقطع التالي، بعد أن يذم الشاعرُ الرجالَ ويعطيهم الأدوار السلبية كتأجيج الحروب، وبثّ الفرقة، وممارسة الخيانة، والميل إلى زواج المتعة؛ يركز الشاعر على قدرة المرأة في الانتاج والانجاب والابداع مستندا الى مظاهر الطبيعة كالوردة والسنبل والفراشة والنحلة. وبهذا القياس، يجعل المرأة أمام الرجل الذي يعتبره رأس كل الخطايا، فهو الذي أجج الحروب والخيانات: **«ليس صحيحاً ../ أن جسد المرأة لا يؤسس شيئاً ./ ولا ينتج شيئاً..ولا يبدع شيئاً ../ فالوردة هي أنثى../ والسنبلة هي أنثى ../ والفراشة والأغنية والنحلة ./ والقصيدة هي أنثى ./ أما الرجل فهو الذي اخترع الحروب والأسلحة ./ واخترع مهنة الخيانة ../ وزواج المتعة ../ وحزام العفة ../ وهو الذي اخترع/ ورقة الطلاق ..»** (قباني، ١٩٩٤).

وفي مقطع آخر يرفض الشاعر ولا يقبل الأقاويل التي تردد قلة التجربة والثقافة عند النساء بل يرى فيهن الحنكة والبرمجة طيلة حياتهن: **«ليس صحيحاً أن جسدك قليل التجربة../ وقليل الثقافة../ وأن العصافير تأكل عشاءك../ فجسدك ذكي جداً../ ومتطلب جداً../ ومبرمج لقراءة المجهول../ ومواجهة القرن الواحد والعشرين.!!»** (قباني، ١٩٩٤)

وفي المقطع التالي يركز نزار على دور المرأة العاطفي وقدرتها على الحب والتعاطف: **«ليس صحيحاً ../ أن جسدك لم يكمل دراسته العالية ../ وأنه لا يعرف شيئاً من فقه الحب ../ وأبجدية الصبابة ../ ولا عن العيون وأخواتها ../ والشفاه..و أخواتها ../ والقبلة.. وأخواتها ..»** (قباني، ١٩٩٤).

وأخيرا في هذه القصيدة يثور الشاعر على مجتمعه العربي، ويؤكد أن المرأة المعاصرة بدأت تضطلع بأدوار مهمة أخرى، ونهضت لمشاركة الرجل في الكثير من تحديات المجتمعات، فيتابع في هذه القصيدة: **«ليس صحيحاً أن جسدك ساذج.. ونصف أمي.. / ولا يعرف شمال الرجولة.. من جنوبها.. / ولا يفرّق بين رائحة الرجل في شهر تموز.. / ورائحة البهارات الهندية.. »** (قباني، ١٩٩٤).

وفي قصيدة «أجمل نصوصي» يبدي الشاعر تمام شكره للمرأة التي منحته جميع الخير في الحياة من الثقافة والشعر والنثر، والحضارة والعدل، والحب والرزق، والطعام. كأن الشاعر يرى جميع الخير في العالم يتجسد في المرأة: **«يا واحدتي:/ إنك وجه إغريقي لا يتكرر/ حالة شعر لا تتكرر/ أنت ثقافة هذا العصر../ والنت الشعر والنت النثر/ وأن البر وأنت البحر/ وأنت فتافيت السكر/ أنت حضارة هذا الكون/ وأنت الخير وأنت العدل/ وأنت هلال الحب الأخضر.../ شكراً يا سيدتي شكرا/ أنت ملأت يدينا رزقاً/ أنت ملأت دروب المنفى رطباً/ لو لم أبصر وطني الثاني في عينيك../ لكانت هذي الدينا كذبا.../ يا زارعة عمري شجرا/ يا مالئة ليلي شهباً/ لولا حبك/ كان القلب جليدا/ كان العالم خشبا!!...»** (قباني، لا.تا: صص ٧٧-٧٩).

إذن نرى أن الشاعر من خلال هذه الأبيات كيف يركز على دور المرأة الاجتماعي والحفاظ على شأنها في المجتمع؛ حيث يميزها عن الرجال الذي لا يعرفون معنى الحب مثل النساء.

٢.٢. التركيز على الأمومة

نجد في الكثير من قصائده أن المرأة تنفرد بميزات يفقدها الرجل. فهي «إمرأة» أينما كانت ووجدت من ربوع الارض. فكأن خالقها خصّها بعنصر منه ألا وهو «الحب»، وعليه جعلها أن تكون مصدرا للحب في الارض. وهذه الميزة توجد في لاوعيها، حيث لا يمكنها التخلي عنها، وهي التي أصبح جزءا لا يتجزأ منها.

لقد أشار نزار قباني إلى الأم في دواوينه الأولى ثلاثاً وعشرين إشارة، بشكل صريح أحياناً، وبشكل مضمر أحياناً أخرى، وكثيرا ما تتردد علاقة الصبا التي جمعته بالمرأة واستحالة أن يصير الحب واقعاً، فموعد الحب مستحيل، واللقاء بها كذلك مستحيل، لأنها مجرد طيف يعيش في الوهم والظنون، أو مجرد خيط سراب يموت دائماً قبل الوصول، أو هي سر لا يجب البوح به، ويجب أن تظل مجهولة لأنها فوق أن تعرف وهي سر وجوده (حيدوش، ٢٠٠١: ص ٩٤).

وفي قصيدة تحت عنوان: «القصيدة تولد من أصابعها» يشير الشاعر إلى أن المرأة التي تشاركه كتابة القصيدة هي الأم، وأن حليبها هو الحبر الذي يكتب به، وأن ثديها هو الذي علمه صناعة النهد ورسمه ولكنه رمز له بالفخار: «**حليب أمي.. كان حبراً أبيضاً/ وثديها علمني صناعة الفخار**» (قباني، ١٩٩٤:).

ففي قصيدة بعنوان: «البيان الأخير من الملك شهريار»، يعترف الشاعر بدور الأم في حياته وفضلها على جميع النساء. الأم التي علّمته معنى العشق وواحلى الكلام: «**إنك الأولى/ وما تبقى من نساء الأرض/ ذرات رمال/ وأنا أعرف من أرضعني لبن العشق/ ومن علمني أحلى الكلام/ فاشرحي لي: كيف أمضي هارباً من صدر أمي؟/ كيف يا واحدتي؟/ أرفض النهد الذي أطعمني/ عقدتي الكبرى التي لم أشف منها/ أن كل امرأة أحببتها/ كان لابد بأن تشبه أمي**» (قباني، ١٩٩٤).

كما نرى الشاعر في قصيدة أخرى المسماة بـ «اللغة الأنثى» كيف يمدح الأم ويركز على دورها التربوي في حياته من خلال هذه الكلمات: «**لغتي أنت/ وكم يسعدني أحب امراءة.../ هي من أحلى../ ومن أرقى../ ومن أصفى اللغات.../ لغتي الأم التي تشعرني/ أنني ما زلت موجودا على قيد الحياة.../ كلماتي أنتِ/ إن لم تزرعيها/ بين نهديك../ فلا معنى لكلّ الكلمات**» (قباني، لا.تا: ص ٦٠-٦١).

إذن من خلال هذه الأشعار التي توصف المرأة بأنها أمّا حنونا، يمكننا أن نستكشف دور المرأة التربوي خاصة.

نتائج البحث:

- يركز نزار في قصائده على دور المرأة في صناعة الحياة، لا سيما التربوي لتأهيل مجتمع واع ومحب للبشرية.
- يتبين من خلال دراسة اشعار قباني بأن المرأة مثلت دورا مهما في العالم العربي الحديث، خاصة فيما يتعلق بأدوارها في تلك المجتمعات.
- على الرغم من أن البعض يرى أن نزار شاعر الغرام والحب، الا أنه تناول ايضا جوانب اخرى للمرأة، خاصة الادوار الاجتماعية والسياسية و....
- ويمكن القول بأن «الدعوة إلى الإباحية والخلاعة» التي كان البعض يتهم نزار بها، قد الصقت به لحد ما فشعره لم يقتصر على هذا الجانب وانما تعداه الى جوانب اخرى.
- يرى قباني أن المرأة هي رمز للخصوبة والجمال والحب، إذ يؤكد أنها مصدر لتأسيس وإيجاد كل شيء، ومنبع الانتاج والابداع. وبهذا القياس، يجعل الشاعر المرأة أمام الرجل الذي يرى أنه رأس كل الخطايا، فهو الذي اوجد الحروب والخيانات، و...
- يقارع قباني من خلال قصائده – خاصة التي نُظمت في الجزء الاخير من حياته الشعرية – فكرة أن المرأة المعاصرة لا تؤدي أي دور في المجتمع. ذلك المجتمع الذي لايرى للمرأة دورا سوى ربة البيت، وأم الاطفال، وخادمة الرجل، وطاهية للطعام. فيثور

الشاعر على مجتمعه العربي، ويؤكد أن المرأة المعاصرة بدأت تضطلع بأدوار مهمة أخرى، وباتت تشارك الرجل في الكثير من تحديات المجتمع.

- نجد في الكثير من قصائد قباني أن المرأة تنفرد بميزات يفقدها الرجل. فهي إمرأة أينما كانت وأينما وجدت من ربوع الارض. فكأن خالقها خصّها سوى غيرها بصفة من صفاته جل وعلا ألا وهو «الحب»، وعليه جعلها أن تكون مصدرا له في الارض. وهذه الميزة توجد في لاوعيها، حيث لا يمكنها التخلي عنها، وهي التي أصبح جزءا لا يتجزأ منها.
- الشاعر نزار قباني ومن خلال كلماته التي تتيه في تفسير معانيها أراد للمرأة ان تكون قبل كل شيء أنثى. فيقول في قصيدة "أريدك أنثى" حين تفقد المرأة الأنوثة، تفقد معها الكثير، فالرجل عندما يتزوج من فتاة يتمنى منها أن تكون أنثى، لذلك فإن المطلوب "أن تكوني أنثى بمعنى الأنوثة ولن تكوني كذلك إذا نافسته لأنك ستفقدين رقتك وجاذبيتك فإذا أردت أن تكوني موفقة في حياتك الزوجية فأعطي الأولوية للعلاقة التي بينك وبين زوجك أولا وأخيرا".

المصادر

الحاوي، ايليا، ١٩٧٣: الشعر العربي المعاصر، نزار قباني شاعر المرأة، لبنان، بيروت: دار الكتاب.

حيدوش، أحمد، ٢٠٠١: شعرية المرأة وأنوثة القصيدة، قراءة في شعر نزارقباني، اتحاد الكتاب العرب.

شكري، غالي: ١٩٧٨ م، *شعرنا الحديث إلى أين؟*، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢.

صبحي، محي الدين، ١٩٦٨: نزار قباني شاعر وإنسان، بيروت: دار الآداب،ط ١.

عكاش، عمار: ٢٠٠٥ م، *صورة المرأة في الشعر العربي المعاصر*، الحوار المتمدن، العدد:١١٣١.

فضل، صلاح، ١٩٩٨: تمثيل في الخطاب القومي في شعر نزار قباني، الكويت: دار سعاد الصباح.

قباني، نزار: ١٩٧٣ م، *قصتي مع الشعر*، منشورات نزار قباني، بيروت.

قباني،نزار، ١٩٩٣: الأعمال النثرية الكاملة، ج٧، منشورات نزار قباني، بيروت.

قباني، نزار، ١٩٩٤: الاعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول، بيروت: لبنان.

قباني، نزار، ١٩٨٨: قاموس العاشقين، منشورات نزار قباني، بيروت.

قباني، نزار، لا.تا: تنويعات نزارية على مقام العشق، لا.م.

النويس، ليال فردان: ٢٠٠٩ م، *صورة المرأة في القصيدة العربية عموما والعراقية خصوصا*، موقع النور: مركز إعلامي ثقافي فني مستقل.

الهواري، صلاح الدين، ٢٠٠٤: المرأة في شعر نزار قباني، لبنان، بيروت، دار البحار.